بن سنان الخفاجي (423ـ466هـ)

سيرته (بشكل موجز)

عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، أبو محمد، ينتسب إلى بني خفاجة من بني حَزْن، وهم أولاد خفاجة بن عمرو بن عقيل، وهي قبيلة عربية تنتمي إلى عدنان. ولد في قلعة عزاز، وهي من القلاع المحيطة بمدينة حلب، وكان أبوه أحد وجهاء هذه القلعة. وقد عرفت أسرته بالعلم والأدب. زار ابن سنان الخفاجي مدينة حلب وأخذ عن علمائها، ومنهم أبو نصر المنازي، وقد حظي بصحبة أبي العلاء المعري فتلقى علومه على يديه، وتتلمذ له، وانتفع به كثيراً، وكان يكثر من التمثيل بشعره في كتبه، ويدعوه بشيخه، وربما كان [أبو العلاء المعري](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%A8%D9%88_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D8%A7%D8%A1_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B9%D8%B1%D9%8A) قد أثر في فكر ابن سنان وفي نظرته إلى الحياة فأكسبه النظرة التشاؤمية أحياناً والسخط على ما يجري من حوله، وقد عبر عن شيء من ذلك بقوله:

أستغفرُ اللهَ لا مالٌ ولا شرفُ

ولا وفاءٌ ولا دينٌ ولا أنفُ

كأنما نحنُ في ظلماءَ داجيةٍ

فليس ترفعُ عن أبصارِنا السجفُ

اهمية كتاب سر الفصاحة :

كتاب سر الفصاحة:

لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعد بن سنان الخفاجي العالم الشاعر الأديب. ولد سنة 422 هـ، وتوفي سنة 466 هـ مسموما، له ديوان شعر صغير مطبوع ببيروت سنة 1316هـ. لقد أقام ابن سنان الخفاجي كتاب "سر الفصاحة" على أساس الفرق بين الفصاحة والبلاغة، وقد شغل كتاب "سر الفصاحة" مكانة ممتازة بين كتب النقد والبلاغة، وهيأت له تلك المكانة عوامل عدة بعضها راجع إلى أسلوبه الأدبي العلمي المتألق الذي لا يطغى فيه ذوق الأديب على ذوق العالم، كما طغى في أسلوب عبد القاهر الجرجاني، ولا يطغى فيه ذوق العالم على ذوق الأديب، كما طغى في أسلوب أبي يعقوب السكاكي؛ وبعضها راجع إلى ثقته وذوقه ورهافة حسه، وأحكامه. وكان لهذا أثره في من حدى حذوه من المتأخرين من علماء البلاغة، فقد أمعنوا في طريقته إلى أن أخلوها من الذوق الأدبي، وجعلوا من كتب البلاغة ميدانا لجدالهم العلمي، ومنهم: أسامة بن المنقذ، وابن شيت القرشي، وضياء الدين بن الأثير، وابن الزملكاني، وابن أبي الأصبع المصري.

لقد تناول ابن سنان الخفاجي الكلام في الفصاحة بأسلوب العالم الأديب، والناقد البصير، بعد دراسات واسعة في دواوين من سبقه من الشعراء، وفي كتب النقد الأدبي من أمثال نقد الشعر لقدامة، و"الموازنة بين أبي تمام والبحتري " للآمدي ، و"الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي الجرجاني، فجاء كتابه خلاصة لهذه الكتب، بعد تهذيب، وتنقيح فيها، وهذا إلى جانب ما أضافه إليها بفكره واجتهاده في ذلك العلم ولا يعاب عليه سوى إطالة الجدال في أمور لا تمت إلى الفصاحة بصلة.

يجدر بنا أن نشير إلى أن البلاغة العربية في هذه الفترة انقسمت إلى قسمين: مدرسة المشارقة ومدرسة المغاربة، فمدرسة المشارقة كان لها اتجاه خاص يهتم بالتحديد والتقسيم، ومدرسة المغاربة، كان لها اتجاه آخر فيه جنوح إلى التذوق الأدبي.ولعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إن ابن سنان الخفاجي كان رائدا لمدرسة المشارقة فكان بكتابه" سر الفصاحة" مدرسة في علم النقد.

صحح كتاب "سر الفصاحة" وعلق عليه عبد المتعالي الصعيدي سنة 1952 م وطبعته مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده.

**فصاحة الكلمة والكلام**

فصاحة الكلمة أو(المفرد): أن تكون الكلمة لينة سهلة النطق تتجاور أصواتها تجاوزاً ليناً هادئاً مُلساً، وأن تكون مألوفة جرت على الألسنة، ورنت أصداؤها في محافل الشعر والأدب، وأن تكون واردة على قواعد تصريف الكلمات([[1]](#footnote-1)) .

وبمعني آخر: خلوصه من تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس الصرفي، وإليك تفصيل تلك العيوب:

تنافر الحروف: من عيوب فصاحة الكلمة: تنافر الحروف، وهو: وصف في الكلمة يؤدي إلى ثقلها على اللسان مع كراهتها في الأسماع وصعوبة النطق بها

والتنافر إما ثقيل، وإما خفيف؛ وقد مثل البلاغيون للتنافر الثقيلعلى اللسان بقول الأعرابي حين سئل عن ناقته:

تركتها ترعي الهُعْخُع، وهو شجر مر المذاق كريه الرائحة، وليس لهذه الكلمة أصل في قواميس اللغة، وكأنها كلمة لا يطاق النطق بها، وهي للمعاياة لا أصل لها، وكثيراً ما يخترعون كلمات للمعاياة، ويرجع العيب في تنافر الحروف إلى قرب مخارج الحروف أو بعدها بعداً شديداً، يقول (ابن سنان الخفاجى):

إن سبب تنافر هذه الكلمة يرجع إلي أنها من حروف أكثرها متفقة المخارج، فالهاء والعين والخاء من الحلق، ولهذا يشترط في تأليف اللفظ أن يكون من حروف متباعدة المخارج.

وقد يكون التنافر خفيفاً والثقل ضئيلاً، ومثل له البلاغيون بقول امرىء القيس:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وفرع يزين المتن أسود فاحم غدائره مستشزرات إلى العلا |  | أثيث كقنو النخلـــة المعثكل تضل المدارى في مثنى ومرسل([[2]](#footnote-2)) |

فكلمة (مستشزرات) كلمة غير فصيحة؛ لأن حروفها متنافرة، بسبب اجتماع ثلاثة حروف متقاربة المخارج، وهي: (السين والشين والزاي) ويرجع ذلك إلى تنافر السمع وكراهة الأذن لها وليس إلى قرب المخرج، (والأذن عند البلاغيين قاض في النغم نافذ القضاء،ولذلك ترى بعضهم يضيف إلى الأصول التي ذكرناها في فصاحة الكلمة أن تكون خالية من كراهية السمع أي أن تحظى موسيقاها عند الأذن بالقبول) ([[3]](#footnote-3))

**ومن عيوب فصاحة الكلمة:** **الغرابة،** وقد عرفها البلاغيون بقولهم: أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها، فتحتاج في معرفتها إلى النظر في كتب اللغة الواسعة، ويجب أن تكون الكلمة مأنوسة الاستعمال عند العرب الفصحاء .

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قد قلت لما اطْلخَمَّ الأمرُ وانْبَعَثَتْ |  | عَشواءَ تاليةً غُبْساً دَهَارِيسَا([[4]](#footnote-4)) |

فلفظ (اطلخم) من الألفاظ المنكرَة التي جمعت الوصفين القبيحين في أنها غريبة، وأنها غليظة في السمع، كريهة علي الذوق، وكذلك لفظ: (**غبسا** د**هاريس)** فهما من الكلام الغريب غير ظاهر المعني المراد، والسبب:عدم تداولها علي الألسنة، ولذلك فهي في حاجة إلي التنقيب عنها في كتب اللغة، وهذا عيب في الكلمة يخرجها عن الفصاحة،هذا ما قاله البلاغيون.

ولو تأملنا كلمة(اطلخم) ومكانها في السياق لوجدنا أن ثقلها وتداخل حروفها يحكيان الشدة والاختلاط حين ينبهم الأمر وتنبعث النوائب، ويؤكد ما أقول قوله في القصيدة ذاتها.

وأري أن الغرابة التي تخل بفصاحة الكلمة تكون في مثل ما مثل به البلاغيون في: الطرموق، والاستمصال، والاطرغشاش، والابرغشاش

**ومن عيوب فصاحة الكلمة: مخالفة القياس**

ومعناه: أن تكون الكلمة مخالفة لقوانين اللغة وقواعد الصرف المستنبطة من كلام العرب، إذ إن أهل اللغة بعامة والبلاغيين بخاصة يعتدون باستعمال الكلمة وشيوعها ويقدمون هذا على: القياس والقانون، وعلى هذا فما استعمله العرب يعد فصيحا، وإن جاء مخالفا للقياس، وما لم يستعمله العرب يعد غير فصيح وإن كان على القياس.

وقد استشهد البلاغيون على هذا بقول الفضل بن قدامة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| الحمد لله العلىّ الأجلــــل |  | الواهب الفضل الكريم المجـزل |

**فصاحة الكلام**

من المعلوم أن الكلمة هي اللبنة التي تبني عليها الجملة، ولا يمكن للجملة أن تستقيم إلا بعد سلامة اللبنات المكونة لها - كما رأيت سابقا - ولهذا كان من الجدير أن ننتقل إلي الحديث عن الجملة(الكلام) وفصاحتها، إذ قد تكون الكلمات المفردة فصيحة، ولكن استعمال الأديب، وتشكيله، وتركيبه لها يؤدي بها إلي العيوب التي تخل بفصاحة الكلام.

يقصد بفصاحة الكلام: خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد اللفظي والمعنوي.

والمراد بخلوصه من: **ضعف التأليف:** أن تكون جملة جارية على طريقة العرب، وموافقة لقواعد النحو، فالفاعل لا يكون إلا مرفوعاً، والمفعول لا يكون إلا منصوباً وغير ذلك من القواعد المعروفة، فإذا جاء الكلام على غير ذلك عد غير فصيح، وقد مثلوا لذلك بقول حسان بن ثابت :

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فلو أن مجداً أخلد الدهر واحداً |  | من الناس أبقى مجده الدهر مطعماً |

والمعنى: لو أن المجد يخلد صاحبه لكان مطعم أولى الناس بالخلود لما تمتع به من مجد وسيادة ما لم يتمتع به غيره، وقد أعاد حسان الضمير في مجده على مطعم، وهو متأخر لفظاً ورتبه لأنه مفعول به ورتبته التأخير 0

**أما تنافر الكلمات**: فيراد به: ألا تتكرر كلمات ذات جرس صوتي واحد أو متقارب جداً، فإن ذلك يثقل على اللسان ولا تهش له الآذان، وإن كانت كل كلمة فصيحة بانفرادها على النظم المتنافرة، ومثل البلاغيون لذلك بقول الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وقبر حرب بمكان فقرٍ |  | وليس قرب قبر حرب قبر |

فإن التنافر قد تولد فيه مجاورة الكلمات (حربـ قبر ـ قرب) ولذلك تنافرت وثقل نطقها مع كون كل واحدة فصيحة بمفردها 0

**أما التعقيد فيقصد به:** أن تكون الكلمات واقعة على صورة من التراكيب يغمض معها المعنى، ويلتوي فيها القصد، فلا يدرك إلا جهد طويل، والعرب لا يحبون الالتواء وينفرون من الغموض الملبس، وإن كانوا يميلون في الكلام إلى الدقة واللطافة ويحبون نوعاً من التمنع الشفاف أحياناً.

ومن كلامهم: خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك وهذا ما عبر عنه البلاغيون بقولهم: أن يكون الكلام غير ظاهر الدلالة على المراد به ولهذا سببان:

**أحدهما**: يرجع إلى اللفظ وهو ما يسمى بالتعقيد اللفظي.

**والآخر**: يرجع إلى المعنى،وهو ما يسمى بالتعقيد المعنوي 0

**التعقيد اللفظي:**

ويعرف بكون الكلام خفي الدلالة على المعنى المراد لخلل واقع في النظم والتركيب والتقديم والتأخير، فلا يدرى السامع كيف يتوصل إلى المعنى، ومثلوا لذلك بقول الفرزدق:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وما مثله في الناس إلا مملكاً |  | أبو أمه حي أبوه يقاربه |

والمعنى الذي قصده الشاعر: وما مثله في الناس أحد يشبهه في الفضائل إلا ابن أخته هشام بن عبد الملك، وكان الصواب أن يكون ترتيب البيت كالآتي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وما مثله في الناس حي يقاربه |  | إلا مملكاً أبو أمه أبوه |

إذ الضمير في **(أمه)** للمملك،وفي **(أبوه)** للممدوح وهو إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى خال هشام بن عيد الملك بن مروان، وواضح أن الفرزدق قد قدم وأخر بين أجزاء البيت ففصل بين المبتدأ **(أبو أمه)** والخبر **(أبوه)** بأجنبي وهو قوله **(حي)** وفصل بين النعت **(يقاربه)** والمنعوت (**حي)** بأجنبي وهو قوله **(أبوه)** وقدم المستثنى **(مملكاً)** على المستثنى من **(حي)** فصار البيت في غاية التعقيد 0

يقول **المبرد (ت 285 هـ**) معلقاً على هذا البيت: وهو من أقبح الضرورة وأهجن الألفاظ وأبعد المعاني، إذ هجنه بما أوقع فيه فن التقديم والتأخير حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع في صدر رجل.

**التعقيد المعنوي:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا |  | وتسكب عيناى الدمع لتجمدا |

ويعرف بكون الكلام خفي الدلالة على المعنى المراد لخلل واقع في المعنى، ويكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني الذي هو لازمه والمراد به خفياً، ومثلوا له بقول العباس بن الأحنف:

فقد كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن،وأصاب،لأن من شأن البكاء أن يكون كناية عنه،ثم كنى عما يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود،لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقاً من غير اعتبار شيء آخر، وأخطأ لأن الجمود خلو العين من البكاء في حال إرادة البكاء منها فلا يكون كناية عن المسرة، وإنما يكون كناية عن البخل

**بلاغة الكلام**

ذكر البلاغيون في تعريف بلاغة الكلام بقولهم: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته. ويقصد بالحال: الأمر الذي يدفع المتكلم إلى أن يعتبر في كلامه خصوصية ما.

**ومقتضى الحال**: تلك الخصوصية التي اعتبرت في كلام المتكلم.

**أما مطابقة الكلام لمقتضى الحال**: فهي مجيء الكلام مشتملا على تلك الخصوصية التي اقتضاها الحال، ومقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، ومقام خطاب الذكي يباين مقام خطاب الغبي، فالاعتبار المناسب هو: مقتضى الحال، فقولك: "**إن إلهكم لواحد**" خطاب لمن ينكر هذا الأمر، فإنكار المخاطب لكون الإله واحدا يسمى حالاً، إذ إنك أتيت بشيء زائد على المعنى وهو التأكيد ليزيل إنكار المخاطب.

أما مقتضى الحال في المثال فهو: صورة التأكيد:(إن واللام) وهي التي استدعاها الحال، وأما مطابقة الكلام لمقتضى الحال فهو: مجيء الكلام على هذه الصورة.

وعلى هذا فكل حال لها مقتضى، فخلو ذهن المخاطب: حال يقتضى خلو الكلام من التأكيد، وإنكار المخاطب: حال يقتضى التأكيد، وهكذا.

ويشترط في بلاغة الكلام كما يقول البلاغيون: سلامته من العيوب المخلة بفصاحته، وعلى هذا فكل كلام بليغ فصيح، وليس كل كلام فصيح بليغاً.

**بلاغة المتكلم** : يقول البلاغيون: إن بلاغة المتكلم: ملكة كائنة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ، وتكتسب هذه الملكة من كثرة القراءة والإطلاع والتأمل والإدراك، بالإضافة إلى ذوق المتكلم وطبعه وذكائه، ليكون قادراً على التأليف والابتكار، وحينئذ يقال له: متكلم بليغ.

\*\*\*

مفهوم كلمة التحرير اللغوي

**مفهوم كلمة التحرير اللغوي**: الكتابة المدققة التي لا شوب فيها.

**المعنى الاصطلاحي:** الالتزام بضوابط الكتابة وتقويمها وتدقيقها وتهذيبها وفق قواعد وأسس مقررة وأصول متعارف عليها .

**معنى الكتابة**: الصياغة المحكمة التي تقوم على الجمع بين الكلمات وربط بعضها ببعض لتعبر عما يدور في نفس المتكلم من أفكار وأحاسيس ومشاعر .

**معنى تحرير الكتابة**: تقويمها وتهذيبها وتدقيقها والارتقاء بأسلوبها والوصول بها إلى أقصى غاياتها لكي تنساب إلى المسامع جيدة السبك غزيرة العطاء .

**تعريف البلاغة**: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته

**تعريف مقتضى الحال**: هو الأمر الذي يدعو المتكلم إلى أن يعتبر في كلامه خصوصية ما .

**أول مبدأ في البلاغة:** أن يكون الكلام مراعيا لمقتضى الحال مع فصاحته.

نماذج من مطابقة الكلام لمقتضى الحال

أولا: إفادة الكلام القصر لأن المقام يقتضيه، وقد مثل قوله تعالى: (**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ**) ([[5]](#footnote-5))، فقد تقدم فيه المسند: (و**عِنْدَه)،** على المسند إليه: **(مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)** وقد أفاد هذا التقديم أن مفاتح الغيب عنده وحده، وليست عند غيره، فلا يشاركه أحد فيها، ومثلها قوله تعالى: (**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**) ([[6]](#footnote-6))، وكذلك قوله تعالى: (**وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) ([[7]](#footnote-7))فمفاتح الغيب ثابتة لله ، ومنفية عن كل ما عداه، فهو : (**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا**) ([[8]](#footnote-8)).

وفى النص الكريم قصر ثان، وهو قوله تعالى: (**لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ**) فقد أثبت العلم لله ، وفى الوقت نفسه نفاه عن كل ما عداه.

ومنه أيضاً قوله تعالى: **(**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**)** ([[9]](#footnote-9))فقد قصر صفة التذكر على الموصوف: أولى الألباب، وهذه الصفة لا تتجاوز أولى الألباب إلى غيرهم فى الحقيقة والواقع، وقد يكون لهم صفات أخرى.

#### ومن هذا الضرب قوله تعالى: (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) ([[10]](#footnote-10)) فقد قصر الألوهية على الله تعالى.

ومنه جاء قوله تعالى: (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) وهو قصر حقيقى تحقيقى، إخلاصا فى العبادة، وطلبا للإعانة.

ثانيا : التوكيد بالنظر فيه إلى حال المخاطب كقول الله تعالى: **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ** ([[11]](#footnote-11))فبعد تأمل تلاحظ أن خطاب الرسل لأصحاب القرية جاء مؤكداً في الصورة الأولى بإن واسمية الجملة (**إنا إليكم مرسلون**) لأنهم منكرون لرسالتهم، كما دل عليه قوله: (**فكذبوهما**)، وقد رد أصحاب القرية كلام الرسل بعد هذا الخطاب الأول بقولهم (**ما أنتم إلا بشر مثلنا**) أي لستم رسلاً، ثم ما وجه الخصوصية لكم في كونكم رسلا دوننا ؟ لأنهم يعتقدون أن الرسول لا يكون بشراً، وهو أسلوب مؤكد بالنفي والاستثناء، ولما كان التقدير: فما أرسلتم إلينا بشئ عطفوا عليه قوله: (**وما أنزل الرحمن**) وهذا تأكيد ثان لنفى الرسالة عنهم بصورة أبلغ؛ لأنهم في هذه الجملة الثانية ينكرون أن الله تعالى قد أنزل شيئاً عليهم وعلى غيرهم،إذ اعتقدوا أن عموم الرحمة مع استواء الخلق في العبودية يقتضيان التسوية بين الجميع فلا يخص هذا بشئ دون الآخر، ولذلك أعرقوا في النفي بقولهم: (**من شيء**) ثم أردفوا ذلك بقولهم: (**إن أنتم إلا تكذبون**) وقد قصروا الرسل على الكذب.

وكان رد الرسل عليهم بعد هذا العناد والإنكار والتطاول بقولهم: (**ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون**) مكررين القضية الأولى - وهذا ضرب من التوكيد - ثم أضافوا إلى صياغتها ألواناً جديدة من التوكيد، فجاءت مؤكدة بإن واسمية الجملة واللام وبمعنى القسم في قوله (**ربنا يعلم**).

يقول فضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى: فقد وضح إذن كيف تتكاثر عناصر التوكيد وفقاً لتصاعد أحوال الإنكار في هذا الحوار القرآني الخصب الذي يحتاج إلي تأمل ومراجعة تكتشف فيه طبيعة العقلية المعاندة ؟، وكيف كانت تنحرف في حوارها عن طلب الحقيقة ومنهج الاحتجاج القويم؟

فلم يطلبوا من الرسل - عليهم السلام - برهانا علي دعواهم كما يفعل الراغبون في التعرف علي الحق، وإنما رفضوا الدعوى، وكان رفضهم مبنيا علي مسلمة خاطئة هي رفض بشرية الرسول، وهكذا عقلية الجاهلية في كل زمان تعتقد مسلمات وتحاول ترسيخها في عقول الجماعات من غير أن تأذن لنور البصيرة والحجة بمناقشتها وتمحيصها، ثم تجعل هذه المسلمات أساس حوارها في بث الجاهلية وتضليل الجماعات، ثم تأمل كيف جري التناقض علي ألسنتهم من حيث لا يشعرون ؟

فهم يقولون: (**وما أنزل الرحمن من شئ**) فذكروا أن الله لم ينزل شيئا بهذا العموم وهذا الإطلاق، ثم ذكروا ذا الجلال بصفة الرحمة، وهي صفة تقتضي إرسال الرسل ؛ لأن رسالتهم رحمة، فكيف يمسك الرحمن عن هداية خلقه ؟ ثم تأمل كيف يتركون قضية الخبر ويهاجمون شخص المخبر ؟ ويقولون(**إن أنتم إلا تكذبون)** وكم يشيع الجبابرة والطغاة قالة السوء عن دعاة الخير والحق ؟

ثم تأمل الجانب الآخر في الحوار تجد دعاة الحق لم يتأثروا بتلك الانحرافات في أسلوب تعاملهم مع الجاهلية الرافضة لعدل الله في الأرض وإنما ظلوا محافظين علي طريق الصواب فكرروا القضية التي هي أساس الحوار وواجهوهم بما يهربون منه، فقالوا في تصميم وإيمان (**ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون**)، إن هذا ومثله مما يجب علي دارس بلاغة القرآن وآداب اللغة أن يطيل النظر فيه، وما أعظم هذا المثل وما أروع دلالته علي ما نحن فيه، راجع، وتأمل، وانظر حولك، واقرأ الواقع الحي كما تقرأ الكتاب([[12]](#footnote-12)).

التوكيد منظور فيه إلى حال المتكلم:

وجدير بالذكر أن حال المخاطب ليست هي المعول عليه في تأكيد الخبر دائما، إذ قد يؤكد لاعتبارات أخري دون النظر إلي حال المخاطب، ومن ذلك قول الفرزدق يخاطب جريرا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| خالي الذي غصب الملوك نفوسَهم  إنا لنضرب رأس كل قبيلــــة |  | وإليه كان جِبَاءُ جَفْنة يُنْقَــل وأبـوك خلف أتانه يتقمّــل |

فلا يعقل أن يقال: إن الفرزدق لاحظ حال جرير، لأن ذلك سيؤدي إلي فساد المعني ؛ إنما جاء تأكيد الخبر في قوله: إنا لنضرب، في مقام الفخر والشجاعة ، وفي الوقت نفسه ألقي إليه قوله : وأبوك خلف أتانه يتقمل، مجردا من التأكيد ، مع أنه منكر له أشد الإنكار ؛ لأنه أراد أن يوهم بأن ذلك حقيقة لا تحتاج إلي تأكيد ، ولا ينبغي لجرير أن ينكرها .

**إذا حال المتكلم هنا هي المعول عليه..**

ومثله في القرآن الكريم كثير، ولكنه يتفوق بلاغة وتأثيرا بالطبع ، وما عليك إلا أن تتأمل قوله تعالي في تضرع أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم لما أسكن ذريته بواد غير ذي ذرع**: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** **رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**  ([[13]](#footnote-13)) ألا تلاحظ أن إبراهيم قد عبر عمال يجول بخاطره ، وعما اختلطت به نفسه .

ومما يتصل بهذا الباب ما ذكره الزمخشري في قول الله تعالي:  **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ([[14]](#footnote-14))إذ لحظ فتور العبارة في قولهم للمؤمنين : (**آمنا**) ووثاقتها في قولهم لإخوانهم(**إنا معكم**) وفسر ذلك في ضوء ضعف الاعتقاد في الأولي ، وقوته في الثانية " ([[15]](#footnote-15)).

يقول العلامة جار الله: فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية ، وشياطينهم بالاسمية محققة بأن؟ قلت : ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديرا بأقوى الكلامين وأوكدهما لأنهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشأته من قبلهم لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم ، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرّك ، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد ، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوا علي لفظ التوكيد والمبالغة ، وكيف يقولونه ويطمعون في رواجه وهم بين ظهراني المهاجرين والأنصار الذين مثلهم في التوراة والإنجيل ، ألا تري إلي حكاية الله قول المؤمنين (**ربنا إننا آمنا**) وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات علي اليهودية والقرار علي اعتقاد الكفر ، والبعد من أن يزلوا عنه علي صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومثنة للتوكيد. ([[16]](#footnote-16))

إذا كان داعي التوكيد في هذا رغبة المتكلم في إبراز خبره كما أحسه وانفعل به وسيطر علي وجدانه.

**وقد يكون داعي التوكيد :** رغبة المتكلم في تقوية مضمون الكلام عند مخاطبه وتقريره في نفسه وإن كان غير منكر للخبر، ومنه جاء قوله تعالي:  **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ([[17]](#footnote-17))

وقوله تعالي **: وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** ([[18]](#footnote-18))

وقوله تعالي:  **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا** ([[19]](#footnote-19))فالمخاطب ليس في نفسه إثارة شك في هذا ولكن التوكيد يهدف إلي زيادة تقرير المعني في نفسه حتى يبلغ عين اليقين ، وفيه تعهد للإيمان الراسخ في يقينه حتى ينهض بأثقال الدعوة ، وهذا توجيه واضح لحملة الرسالة من بعده ، وأنهم في حاجة مستمرة إلي أن يعودوا إلي دواخل نفوسهم يزكون إيمانهم ويطهرون يقينهم مما قد يعلق به من عوائد الجاهلية لتظل قلوبهم نبعا طاهرا يمدهم بالثبات والإيمان في المواجهات العنيدة بينهم وبين ضلالات العصور وظلمات المادة. ([[20]](#footnote-20))

**وقد يكون التوكيد** لتحقيق الوعد أو الوعيد لتزداد النفوس يقينا كما في قوله تعالي:  **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**  ([[21]](#footnote-21))

وقوله تعالي**: إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** ([[22]](#footnote-22))

وقوله تعالي **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**([[23]](#footnote-23))

وقوله تعالي**: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ([[24]](#footnote-24))

**وقد يكون التوكيد** لغرابة الخبر، وحرص المتكلم علي أن يؤنس به نفس المخاطب وإن كانت لا تنكره، وإنما هي في حاجة إلي ما يهيئها لقبوله، ومنه جاء قوله تعالي: **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**  ([[25]](#footnote-25))فقد أكد (**إني أنا الله رب العالمين**) ليؤنس نفس موسي بالخبر ويحبط ما عساه يعلق بالنفس في مثل هذا الموقف، فقد انطلق ليأتي أهله بخبر أو جذوة من النار لعلهم يصطلون، وبينما هو ذاهب إلى الغرض فاجأه نداء الحق من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة، وهذا موقف غريب فاحتاج إلى التوكيد .

ومثله قوله تعالى يخاطب موسى لما رأى أفاعيل السحرة وأوجس في نفسه خيفة قال له الحق: **قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى**  ([[26]](#footnote-26))، فأكد قوله : (**إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى**) بجملة من التوكيدات كما قال البلاغيون ليزيل وحشة نفسه في هذا المقام وإن كان موسى مستوثق اليقين من وعد ربه.

**وكثير منه في كتاب ربى**  **فعد إليه، والله المستعان.**

أضرب الخبر

ذكر البلاغيون أن أول من أشار إلى أضرب الخبر هو **المبرد** حين سأله الفيلسوف الكندي قائلاً: إني أجد في كلام العرب حشواً، يقولون: عبد الله قائم، وإن عبد الله قائم، وإن عبد الله لقائم، والمعنى واحد

فأجاب المبرد: بل المعاني مختلفة ؛ فعبد الله قائم إخبار عن قيامه، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل، وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر 0

وقد أفاد المبرد بإجابة البلاغيين حين نبهوا على ضرورة أن يكون المتكلم عالماً بأحوال المخاطبين وما يتردد في خواطرهم، وأن يوجه كلامه إليهم ملائما لحال كل واحد منهم 0

فإذا كان المخاطب خالي الذهن وُجه الكلام إليه خالياً من التأكيد، وإذا كان المخاطب متردداً في الحكم وجه الكلام إليه مؤكداً بمؤكد واحد استحساناً، وإذا كان المخاطب منكراً للحكم وجب على المتكلم أن يؤكد كلامه حسب طبيعة الإنكار، وعلى هذا يمكن القول: إن أضرب الخبر ثلاثة:

* **ابتدائي:** وهو ما يلقى للمخاطب خالي الذهن، ويكون مجردا من التأكيد، لأنك تبتدىء به المعنى في النفس 0
* **طلبي:** وهو ما يلقى للمخاطب المتردد في الحكم، ويؤكد هذا النوع من الخبر بمؤكد واحد استحساناً، لأنك تواجه به تردداً في نفس المخاطب.
* **إنكاري**: وهو ما يلقى للمخاطب المنكر لمضمون الخبر، ويؤكد هذا النوع من الخبر بمؤكدين أو أكثر حسب قوة وضعف الإنكار

ولا يخفى عليك أن حروف التوكيد كثيرة منها: إن، وأن، واللام، ولام الابتداء، وأحرف التنبيه، ونونا التوكيد، والحروف الزائدة، والقسم، وضمير الفصل، والتقديم 0

وتستطيع قراءة قول الله تعالى: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ([[27]](#footnote-27)) تلاحظ أن المقام قد اقتضي التأكيد بأكثر من مؤكد ليناسب شدة إنكار المشركين لنزول القرآن حين قالوا:

**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ** ([[28]](#footnote-28))

فكان قوله تعالي:  **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ردا علي إنكارهم، وجاء الرد مصدرا بأداة التوكيد (**إن**) ثم بضمير الفصل (**نحن)** وتكرار الإسناد للضمير (**نحن نزلنا**) ولما كان الغرض من هذا التأكيد دفع الشكوك المحتملة من أن يصيب القرآن ما أصاب التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل جاء الخبر الثاني مؤكدا بإن ولام التأكيد، وتقديم الجار والمجرور، وكل هذا ليبث الطمأنينة في قلوب الفئة المؤمنة، وفي الوقت نفسه يدفع الشك والاحتمال .

وتأمل في هذا قول الله تعالي: **وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى** ([[29]](#footnote-29)) تجد التوكيد بضمير الفصلفي قوله (**وأنه هو أضحك وأبكي)** لأنه يظن أن الناس يضحكون ويبكون أي يسرون غيرهم ويحزنونهم فأكد اختصاصه سبحانه وتعالي بذلك ليبطل أن يكون لغيره سبحانه فاعلية في شئون عباده حتى الإضحاك والإبكاء وهي أقرب الأفعال إلي أن تكون مظنة للشركة، وجاء بالضمير أيضا في قوله: (**وأنه هو أمات وأحيا**) لأنه قد يظن أن الإنسان يميت بالقتل أو يحيى بالقوت، ولم يأت بالضمير في قوله: **(وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى)** لأنه لا يتوهم نسبة الخلق لغيره، كما أن المعاندين لم يتشددوا في إنكار مخلوقيتهم لله ؛ لأنهم يقولون في السماوات والأرض إن سئلوا: **خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** ([[30]](#footnote-30))

وجاء بضمير الفصل في قوله: **(وأنه هو أغني وأقنى)** لأنه مما يظن فيه الشركة، وذلك واضح ؛ فقد يعتقد الإنسان أنه يقني غيره، أو أنه يقني نفسه، فاستأصل ذلك ليقرر في الضمير أن العطاء والمنع في قبضة واحد لا شريك له، وجاء بالضمير في قوله: (**وأنه هو رب الشعري**) لأن خزاعة كانت تعبدها فأكد بربوبيتها له سبحانه وتعالي وقال: **(رب الشعري)**، ولم يقل: إله الشعري؛ لأن الربوبية فيها إشارة إلي أنها مخلوقة له سبحانه فكيف تعبد من دونه ؟

وهكذا تجد نبرة التوكيد تعلو وتهبط في مراقبة دقيقة وبالغة لمواقع المعاني في النفوس، وما تنطوي عليه دواخلها، وسبحان المحيط بالأسرار. ([[31]](#footnote-31))

ومجئ الخبر علي هذه الأضرب الثلاثة ملائما لحال المخاطب يسمي عند البلاغيين: **خروج الكلام علي مقتضي الظاهر**، وقد يخرج علي خلاف مقتضى الظاهر لأمور اعتبارية يلحظها المتكلم في المخاطب، فينزل حاله منزلة حال أخري، وهو موطن دقيق لا يهتدي إليه إلا ذكي النفس، دقيق الحس، واسع الخيال.

إخراج الكلام علي خلاف مقتضي الظاهر

ويتحقق ذلك إذا رأي المتكلم في المخاطب حالا جديدة غير حاله المعروفة فينزله منزلة أخري ؛ فقد ينزل خالي الذهن منزلة المتردد أو المنكر، وقد ينزل المنكر منزلة غير المنكر، وتلك أهم الصور التي يخرج الكلام فيها علي خلاف مقتضي الظاهر:

أولا: تنزيل خالي الذهن منزلة المتردد :

ويتحقق ذلك إذا كان في الكلام السابق ما يشير إلي الخبر، وحينئذ يأتي الكلام مؤكدا بمؤكد واحد، ومنه جاء قوله تعالي: **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ([[32]](#footnote-32)) **إ**ذ لما قال الرسول لسيدنا أبي بكر حين خاف عليه **(لا تحزن)** أثار النهي في نفس سيدنا أبي بكر تطلعا وشوقا، واستشرف إلي معرفة السبب في هذا النهي؛ لأن الحزن له سلطان علي النفوس في مثل هذا الموقف لقوة داعيه فكان النهي عنه أمرا غريبا يحتاج إلي بيان علته فقال: (**إن الله معنا**) فذكر ما يقتلع الخوف والقلق ويبث الرضا واليقين، وفي قول الرسول لأبي بكر (**إن الله معنا**) تنزيل له منزلة السائل المتردد .

ومثله قول الله  **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ** ([[33]](#footnote-33)) إذ لما جاء الأمر في قوله:(**اتقوا)** استشرفت النفس إلي معرفة السبب في الأمر، ودارت الأسئلة في هواجسها حول ما تتوقعه من نتيجة لهذا فجاء قوله(**إن زلزلة الساعة شئ عظيم**) منزلا خالي الذهن منزلة المتردد ومعللا للأمر بذكر بعض العقوبات الهائلة، إذ إن ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ما هي من مباديه ومقدماته من الأحوال والأهوال التي لا ملجأ منها سوي التدرع بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة.

ومنه أيضا جاء قوله تعالي: **قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ** ([[34]](#footnote-34)) فقد سوي القرآن الكريم بين إنفاق المنافقين طائعين وإنفاقهم مكرهين، فكلاهما مردود عند الله تعالي، ولما كان الأمر كذلك تطلعت نفوس المنافقين إلي معرفة علة هذه التسوية في هذا الموقف فجاء قوله **(إنكم كنتم قوما فاسقين).**

وتدبر معي قول الله **وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** ([[35]](#footnote-35))**،** فقوله تعالي**:(إنهم مغرقون)** علة النهي في قوله تعالي**(ولا تخاطبني في الذين ظلموا)** منزلا خالي الذهن منزلة المتردد**؛** لأن المخاطب وهو سيدنا نوحخالي الذهن من الحكم الخاص بالظالمين، وكان مقتضي الظاهر أن يلقي إليه الخبر خاليا من التأكيد، ولكن تطلعه بعد النهي إلي ما سيصيبهم كان سببا في تنزيله منزلة السائل المتردد.

وقوله تعالي: **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ** ([[36]](#footnote-36))**،** لقد نهي رب العزة عن أن يظن أن الكفار لهم سبق، أو سيكون لهم سبق أي الظفر في وقت ما، لأنهم لن يفوتوا شيئا من أوامر الله تعالي، ولا يغر علوهم ولا كثرتهم وجري كثير من الأمور علي مرادهم فكل ذلك بتدبير الله ، ولا يخرج شئ عن مراده، ولا بد من هلاكهم ؛ لأنهم في قبضة الله تعالي لم يخرجوا منها ولن يخرجوا، ولما كان النهي كذلك تطلعت النفوس إلي معرفة السبب، فجاء قوله تعالي:(**إنهم لا يعجزون**).

ثانيا : تنزيل غير المنكر منزلة المنكر

ويتحقق ذلك إذا ظهر علي غير المنكر شئ من علامات الإنكار، وحينئذ يأتي الكلام مؤكدا بمؤكدين أو أكثر، ومن ذلك قوله تعالي **وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ([[37]](#footnote-37)) فهؤلاء الذين تابوا وآمنوا لا ينكرون رحمة الله تعالى ومغفرته، ولكنهم لما ارتكبوا السيئات قبل توبتهم صاروا في خوف من عقاب الله تعالى، وكلما تذكروا ذلك اقشعرت قلوبهم وارتعدت أجسادهم، فكان تنزيل حالهم وما هم عليه من خوف العقاب وعدم أمن ذلك اليوم منزلة من ينكر رحمة الله تعالى، ولذلك جاء الخبر مؤكداً بأكثر من مؤكدين ليبث الطمأنينة في قلوب هؤلاء ويثبتهم 0

ومنه جاء قول الله تعالى: **إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ** ([[38]](#footnote-38))

إذ لما كان رسول الله حريصاً على هداية هؤلاء الضالين، وقد أجهد نفسه معهم علهم يقبلون الحق ويقلعون عن الكفر،لما كان كذلك نزله منزلة من ينكر هذه الحقيقة ويعتقد أنه قادر على إسماع الصم لمبالغته في الإلحاح عليهم بالدعوة 0

ومنه أيضا جاء قوله تعالى : **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ([[39]](#footnote-39))

وقوله سبحانه: **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** ([[40]](#footnote-40)) فقد أكد قوله : (**ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ**) بمؤكدين مع أنه غير منكر، وأكد قوله: (**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**) بمؤكد واحد مع كونه مما ينكر، إذ إن الكفار ينكرون البعث ولا ينكرون الموت ، والسبب في ذلك كما يقول الخطيب : أكد إثبات الموت تأكيدين ـ وإن كان مما لا ينكر ـ لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ في إنكار الموت ؛ لتماديهم في الغفلة والإعراض عن العمل لما بعده، ولهذا قيل : (**ميتون**) دون تموتون لإفادة الثبوت والدوام، وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً، وإن كان مما ينكر ـ لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بأن لا يُنكر، بل إما أن يعترف به ، أو يتردد فيه ، فنُزل المخاطبون منزلة المترددين تنبيها لهم علي ظهور أدلته ، وحثا علي النظر فيها ولهذا جاء **(تبعثون**) علي الأصل. ([[41]](#footnote-41))

ثالثا: تنزيل المنكر منزلة غيره

ويتحقق ذلك، إذا كان الدليل على ما ينكره المنكر واضحاً بحيث لو تأمله لعدل عن إنكاره، وحينئذ يأتي الكلام خالياً من التأكيد؛ ومثله جاء قول الحق تعالى : **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**([[42]](#footnote-42)) فقد جاء الخبر خالياً من التأكيد مع أنه منكور عند الجاحدين، ولكن القرآن لم يبال بإنكارهم ولم يجعل له وزناً في هدوء وثقة، وكان يجب على هؤلاء المنكرين أن يتدبروا ما في السماوات وما في الأرض من ناطق وصامت وجبال وبحار وكواكب وشجر ودواب كل ذلك يسبح للملك القدوس العزيز الحكيم.

إنه خبر يضرب على أوتار القلوب كي تعدل عن إنكارها وتتوب إلى ربها 0

ومثله جاء قوله تعالى: **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ([[43]](#footnote-43))

وقوله تعالى**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** ([[44]](#footnote-44))

وقوله تعالى: **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ([[45]](#footnote-45))

وقوله تعالى: **قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ** ([[46]](#footnote-46))

وقوله تعالى: **اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا** ([[47]](#footnote-47)) وغيرها من آيات القرآن الكريم التي جحدت بها عقول الذين طبع الله على قلوبهم، والقرآن لم يجعل لهم وزناً ولا قيمة فألقى إليهم الكلام خالياً من التوكيد 0

مقتضى الحال عند الجاحظ

الجاحظ: عمرو بن بحر الجاحظ، البصري الأديب المتكلم المعتزلي (ت 225 هـ) مؤسس علم البلاغة حقاً، فهو أول أديب عربي يقوم بجمع ما يتصل بهذا العلم من كلام من سبقوه وعاصروه، ويضيف إليه ما عدله من أفكار وآراء ثم يتوسع بدراسته ، ويعزز مسائله بالأمثلة .

وقد تناول مفهوم البلاغة فحملها على أكثر من معنى، منها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ فلكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء؛ فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والإسترسال في موضع الإسترسال .

وهو الذي ينظر إليه البلاغيون والنقاد على أنه مقياس من مقاييس البلاغة والنقد، ذلك أن الحكم على بلاغة الكلام مرتبط بمطابقة الكلام لما يتطلبه الموضوع أو الموقف الذي يقال فيه، ولما يقتضيه حال السامعين .

وأولى عنايته بمسألة اللفظ والمعنى وبقضية النظم ، فقرر أن الكلام البليغ هو الذي يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق إلى معناه إلى قلبك .

يقول الجاحظ: وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه، ومنزهاً عن الاختلال، ومصوناً عن التكلف، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة .

ونصَّ على أن الألفاظ المترادفة مختلفة في الدلالة، فليس هنالك لفظ يساوي لفظاً آخر مساواة تامة في دلالته ومعناه، وإذا كانت الألفاظ من واد واحد، فإن كلا منها يستقل بمرتبة من مراتب المعنى، ويدل على ظل من ظلاله، فألفاظ الشجاع والبطل والبُهْمَةُ والأليس - مثلاً - إنما هي ظلال متدرجة لمعنى الشجاعة من بدايتها إلى غايتها .

وأشار إلى أن لكل قوم ألفاظاً حظيت عندهم، وأن كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض، وصاحب كلام موزون، لا بد له أن يكون قد ألف ألفاظاً بأعيانها لُيديرها في كلامه، حتى لو كان واسع العلم، غزير المعاني، كثير اللفظ .

وذهب إلى أن البلاغة تبرز من خلال المزاوجة أو الملائمة بين اللفظ والمعنى، وتتمثل في الأسلوب القوي المحكم، أو نظم الألفاظ التي يتطلبها المعنى على نحو يتيح لجوهر المعنى أن يبدو كاملاً واضحاً مؤثراً، وقرر أن إعجاز القرآن هو تأليفه ونظمه .

واهتم الجاحظ بالبيان العربي، وتأثر به تأثراً ظاهراً، ورأى أن القدرة على الإفهام والتبيين بلاغة، ولعل هذا الاهتمام والتأثر والرؤية حملته على أن يسمي درة مصنفاته: البيان والتبيين .

وأخذ عنه أئمة العلماء: كابن قتيبة، وابن المعتز، والمبرد، وابن عبد ربه، وقدامة بن جعفر، والرماني، وأبي هلال العسكري، وابن رشيق القيرواني، وعبد القاهر الجرجاني، وغيرهم.

1. **() ينظر: خصائص التراكيب د. محمد أبو موسى / 61** [↑](#footnote-ref-1)
2. **() الفرع: الشعر، يزين: يغطي وفي رواية: يغشي، المتن: الظهر، الأثيث: الكثير الشعر، قنو النخل: عنقودها، المعثكل: المتراكم، الغدائر: للذوائب، مستشزرات: مرتفعات، المدارى: جمع مدري وهي الأمشاط، المثني: المفتول، المرسل: غير المفتول، والمعني: إن خصل شعرها مرتفعات وأن أمشاطها تغيب بين الشعر المفتول والشعر المرسل، وهذا وصف دقيق لجانب من جوانب الجمال في المرأة .** [↑](#footnote-ref-2)
3. **() خصائص التراكيب/ 63** [↑](#footnote-ref-3)
4. **() ديوان أبى تمام /171 واطلخم: اشتد وأظلم، عشواء:صفة لموصوف محذوف أي:ليلة عشواء، غبس: جمع غبساء وهى الليلة المظلمة، الدهاريس: الدواهي، يقصد أبو تمام بقوله: اشتداد الأمر بالليالي الحوا لك المتتالية المليئة بالأحداث الجسيمة.**  [↑](#footnote-ref-4)
5. **() الأنعام بعض آية 59** [↑](#footnote-ref-5)
6. **() الرعد 39** [↑](#footnote-ref-6)
7. **() الزخرف 85** [↑](#footnote-ref-7)
8. **() الجن 26** [↑](#footnote-ref-8)
9. **() الرعد 19** [↑](#footnote-ref-9)
10. **() البقرة 163** [↑](#footnote-ref-10)
11. **() سورة يس 13- 16** [↑](#footnote-ref-11)
12. **() خصائص التراكيب 82، 83** [↑](#footnote-ref-12)
13. **() إبراهيم/ 37، 38** [↑](#footnote-ref-13)
14. **() البقرة/ 14** [↑](#footnote-ref-14)
15. **() خصائص التراكيب / 93** [↑](#footnote-ref-15)
16. **() الكشاف 1/73، 74** [↑](#footnote-ref-16)
17. **() طه/ 14** [↑](#footnote-ref-17)
18. **() الشعراء /191 ، 192** [↑](#footnote-ref-18)
19. **() الإنسان / 23** [↑](#footnote-ref-19)
20. **() انظر: خصائص التراكيب/ 95** [↑](#footnote-ref-20)
21. **() الأنبياء / 101** [↑](#footnote-ref-21)
22. **() الحج / 38** [↑](#footnote-ref-22)
23. **() الحج / 39** [↑](#footnote-ref-23)
24. **() الأنبياء / 98** [↑](#footnote-ref-24)
25. **() القصص /30** [↑](#footnote-ref-25)
26. **() خصائص التراكيب / 98** [↑](#footnote-ref-26)
27. **() الحجر/ 9** [↑](#footnote-ref-27)
28. **() الحجر/ 6، 7** [↑](#footnote-ref-28)
29. **() النجم / 43، 52** [↑](#footnote-ref-29)
30. **() الزخرف/9** [↑](#footnote-ref-30)
31. **() خصائص التراكيب 84** [↑](#footnote-ref-31)
32. **() التوبة/40** [↑](#footnote-ref-32)
33. **() الحج/ 1** [↑](#footnote-ref-33)
34. **() التوبة/ 53** [↑](#footnote-ref-34)
35. **() هود/ 36 ، 37** [↑](#footnote-ref-35)
36. **() الأنفال/ 59** [↑](#footnote-ref-36)
37. **() الأعراف153** [↑](#footnote-ref-37)
38. **() النمل / 80 ، 81** [↑](#footnote-ref-38)
39. **() الحجر / 9** [↑](#footnote-ref-39)
40. **() المؤمنون/ 15 ، 16** [↑](#footnote-ref-40)
41. **() الإيضاح 1/96** [↑](#footnote-ref-41)
42. **() الجمعة /1** [↑](#footnote-ref-42)
43. **() غافر /2** [↑](#footnote-ref-43)
44. **() الحديد / 5** [↑](#footnote-ref-44)
45. **() الفتح / 29** [↑](#footnote-ref-45)
46. **() الرعد /30** [↑](#footnote-ref-46)
47. **() الشورى / 15** [↑](#footnote-ref-47)